تاريخ العلاقة بين الإسلام والآخر

لقد باتت مقولات التفاهم والتعايش بين الشعوب في إطار مفهوم (الاعتراف بالآخر) موضوعاً جديداً بالنسبة للغرب الذي أثبت أن واقعه الثقافي والتاريخي والحضاري لم يتشكل في (إثبات ذاته) إلا من خلال نفي وإقصاء وتشويه صورة الآخر كما عبّرت أطروحة العولمة ونهاية التاريخ، أما الإسلام فإنه يتجاوز هذا المنطلق الذي فرضته الثقافة الغربية في التعايش مع الآخر وعياً وممارسة، لأن الاعتراف بالآخر ليس إشكالاً اقتضته تحديات المرحلة الراهنة وإنما هو جزء من عقيدة المسلم، وأساس من أسس دينه التي علمته أن الإنسانية واحدة لا تتجزأ، وأن الله تعالى أراد للناس أن يكونوا قبائل وشعوباً متنوعة ليتعارفوا، وليحققوا التفاعل المتحضر والعيش الآمن داخل مساحات شاسعة وبيئات مختلفة، إن الأمة الإسلامية من حيث هي أمة الوسطية، شاهدة وكونية، لا تنفي عطاء ونتاج الحضارات، وعلاقتها مع الحضارات ليس علاقة صراع ونفي الآخر، بل لاستيعابه في إطار مبدأ التعارف والتكامل في أفق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كقيم إلهية توجّه البشرية إلى المُثل العليا الحقيقية.

وهنا لابد من أن نبين كيفية علاقة الإسلام بالأخر من خلال المحاور التالية:

١. العلاقة مع الآخر في ضوء الوسطية الإسلامية:

مفهوم الآخر:

المعنى العام **لمفهوم الآخر** هو الغير، أي المختلف وكانوا يطلقونه على الأشياء، وأيضاً الحالات المعنوية.

والغير: هو أحد تصورات الفكر الأساسية، ويراد به ما سوى الشيء مما هو مختلف أو متغير عنه، ويقابل الانا ومعرفة الغير تعين على معرفة النفس.

فالنظرة الإسلامية للعالم لا تعتبر التعدد والتنوع البشريين من قبل الحوادث التاريخية أو الانحرافات الشخصية أو العيوب الإنسانية، بل تعدهما مظهراً من تدبير الله تعالى للعالم، وسنة من سنن الله تعالى في الكون، ولو شاء الله تعالى لخلق الناس على نمط موحد من الأفكار والمشارب، والأهواء والأذواق، ولكن حكمته سبحانه اقتضت اختلاف البشر وتعددهم في الكون إزاء سموه ووحدانيته، وهو ما أكدّته مجموعة من آيات الكتاب الحكيم، كما في قوه تعالى:**(لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم).**

٢. أسس وضوابط العلاقة مع الآخر (نظرياً وتطبيقياً):

أ ـ المستوى التنظيري:

ظهر الإسلام الذي اعتبر في كل تشريعاته وتنظيماته ومواقفه الفكرية الإنسانية أساساً لدراسته كل المواقف والنزاعات والخلافات، في زمن الإعتراف بحق الآخر دينياً وحضارياً، وقد سجل التاريخ البشري هذا الإشكال المتبادل للآخر في الفكر والواقع والممارسة والتطبيق.

فمفهوم الآخر في **الحضارة الفرعونية** كان قائماً على أساس التفاوت الطبقي بين الحكام والعبيد، وكانت العلاقة بين فرعون ورعيته قائمة على تكريس نظام عبودية الآخر ونفيه وإبادته، وفي الحضارتين الإغريقية والرومانية وبقدر ما أنتجتا من علوم ومعارف ذات قيم إنسانية، تؤكد على ضرورة أن يعيش الإنسان وسط أقرانه وكفاحه من أجل الشعور بحب الآخرين والإحساس بقيمة الحياة في وسط جماعة، وبعد مجيء **الديانة اليهودية** تمّ تجديد العلاقة مع الآخر المغاير، من خلال **تطويع النص الديني** وإغنائه بمعايير أثبتوا بموجبها أنهم شعب الله المقدس: **"لأنك شعب مقدس للرب إلهك"** فغذت تلك النصوص نمو الوعي العرقي بفكرة الشعب المختار، الجنس المتفوق على الآخر، وتحول هذا الوعي العنصري إلى درجة بات ظنهم يوحي لهم بأنهم خلقوا من عنصر الله، أما بقية الشعوب (الآخر) فمخلوقات حيوانية سخرها الله تعالى لخدمتهم، وعلى ضوء ذلك أمر عزرا بتطبيق الاصطفاء العرقي وفصل الآخر الغريب، **"وكل أولئك الذين اتخذوا زوجات أجنبيات طلقوهن مع أولاًدهن"** فهذا الرفض المطلق للآخر تجاوز البعد العرقي لجهة رفض دم الآخر بالزواج، لتشمل أيضاً رفض ديانته وثقافته وصور سلوكه.

وبالنسبة **للديانة المسيحية** فإنها قربت المؤمنين بها إلى الزهد والانقطاع عن الحياة الدنيا وشؤونها، وتركت (الآخر/الغير) منضوياً تحت **لواء الرهبانية والزهد،** بعيداً عن مملكة الرب ولا يستحق الدخول فيها، وبالتالي فهو محروم من غفران الكنيسة، ومطرود من مملكة الرب، فتعاليم السيد المسيح تقول: **ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله"** وبذلك ثم تقعيد المقولة التاريخية المسيحية [اترك ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر] على أساس أن الآخر/الداخلي الذات الخارج عن سلطة الكنيسة، والآخر/ الخارجي هو من ينتمي لديانات أخرى، وبالأخص الدين الإسلامي الذي يبسط نفوذه إلى الفضاء المسيحي نفسه، فتوجت العلاقة به (بالحروب الصليبية) حروب الفرنجة، كان هذا هو واقع حدود التعامل مع المخالف في العالم وموقف أصحاب الديانات والحضارات مع الآخر، قبل مجيء الإسلام، إقصاء، وإلغاء، وإبادة، واضطهاداً، قوله تعالى: **(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).**

ب ـ المستوى التطبيقي :

إن منهج الحوار المؤسس على مفهوم الحرية التي يعتبرها الإسلام قيمة كبرى، لاتصالها بغريزة الإنسان وطبيعته وفطرته، فهي حق أساسي من حقوق الإنسان يلامس عقيدته، وانتماءه وفكره وشعوره وطقوسه وتراثه، بها تتشكل شخصيه وكرامته، وتتحدد مسؤوليته في بناء مجتمعه، والحفاظ عليه من النزاع القائم على رفض سنة الإختلاف.

لهذا السبب انتقل بنا القرآن الكريم من المستوى النظري في الإعتراف بالآخر إلى المستوى التطبيقي العملي، ليعلمنا أن مفهوم الحوار في الإسلام له معايير وضوابط وأصول ينبغي الالتزام بقواعدها للتحاور مع المخالف وفتح العلاقة معه، وقد وردت صور متعددة لهذا التوجيه الرباني عبر قصص الانبياء وفي تاريخ الدعوة الإسلامية، كما وردت في السنة النبوية العديد من التوجيهات والتعاليم النبوية التي ركزت مبادئ الحرية وأسست للمنهج التربوي الأخلاقي الذي سار عليه الصحابة الكرام .

كما في قوله تعالى: **(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقل اشهدوا بأننا مسلمون)**، فنص الآية واضح في أمر المسلمين بالمبادرة إلى دعوة الآخر المخالف عقدياً إلى مائدة الحوار للبحث ولمدارسه، كما علّم أنبيائه وأرشدهم إلى أفضل السبل وأنجح الطرق لإدارة الحوار النافع المثمر، الذي يرتفع بمستوى التفكير إلى نور المعرفة واليقين، فيتبين الحق ويتضح الرشد.

هكذا سنَّ الله تعالى لعباده أصول وآداب التعامل مع المخالف، ولم ينكر عليه حق التعامل بالأسلوب الأمثل في محاورته أو دعوته أو مناظرته وجداله، ولذلك لا يمكن الحديث اليوم عن حوار مثمر وفعال مع الآخر بمعناه الإسلامي في غياب الالتزام بآداب الدعوة الوسطية الإسلامية التي أسسها القرآن الكريم على قاعدة منهج الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى.